الجنين في الأربعين الأولى من الخلق، ونفـــــخ الروح
بين حديثي ابن مسعود وحذيفة بن أسيد

الدكتورة حكيمة حفيظي

جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وبعد،

فإنه من بين أوجه الإعجاز العلمي، والتشريعي للقرآن الكريم، ما جاء ذكره من آيات قرآنية حكيمة تتعلق بموضوع خلق الإنسان، وعن الأطوار التي تتم فيها عملية خلق الآدمي، من ذلك، قوله عز من قائل: {يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى} (الحج 5). وقال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين} (المؤمنون 12–14).

وباعتبار السنة النبوية الشريفة، هي المبينة والمفصلة لكثير ممّا جاء ذكره في القرآن الكريم، فإنها اعتنت بدورها بمسألة خلق الآدمي، فجاءت في كتب السنة، مرويات كثيرة تبين هذه المسألة، من ذلك ما رواه الشيخان، البخاري ومسلم في صحيحيهما.

ويأتي هذا المقال لبيان بعض الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع في السنة النبوية الشريفة – وتحديدا فيما ذكر في الصحيحين– من ذلك:

1- ذكر بعض المرويات المرتبطة بهذا الموضوع في الصحيحين.

2- ذكر بعض الميزات الإسنادية لهذه المرويات عند الشيخين.

3– بيان أوجه الجمع بين الحديثين.

4- ذكر ما قيل في اختلاف ألفاظ حديث حذيفة بن أسيد، رضي الله عنه.

5- ذكر الآراء الطبية التي توصّل إليها الطب عند المتقدمين.

6- مقابلة هذه الآراء بما توصل إليه رأي الطب في العصر الحديث.

7- أوجه الإعجاز العلمي لهذين الحديثين. معتمدة في ذلك، على المرويات المذكورة في الصحيحين، وعلى ما ذكره الحافظ ابن حجر في شرحه "فتح الباري"، ورأي الطب الحديث. وسيكون تركيزي خاصة على مسألة الخلق في الأربعين الأولى (في حديث حذيفة)، والجمع بينها وبين ما جاء ذكره في حديث ابن مسعود.

أولا: ذكر المرويات: قال الإمام البخاري: "حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك. حدثنا شعبة. أنبأني سليمان الأعمش. قال: سمعت زيد بن وهب. عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق، قال: "إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع: برزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح. فوالله إن أحدكم -أو الرجل- ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها"[1].

وقال الإمام مسلم (في روايته حديث ابن مسعود):

1- حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة. حدثنا أبو معاوية ووكيع. (ح) وحدثنا محمد بن عبد الله بن نمير الهمداني -واللفظ له- حدثنا أبي وأبو معاوية ووكيع. قالوا: حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق، قال: "إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح. ويؤمر

1- كتاب القدر، 477/11. ورواه مسلم في القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، ص. 1019، والترمذي في القدر، باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم، 446/4.

بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد. فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها".

2- حدثنا عثمان بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم. كلاهما عن جرير بن عبد الحميد.(ح) وحدثنا إسحاق بن إبراهيم. أخبرنا عيسى بن يونس. (ح) وحدثني أبو سعيد الأشج. حدثنا وكيع. (ح) وحدثناه عبيد الله بن معاذ. حدثنا أبي. حدثنا شعبة بن الحجاج. كلهم عن الأعمش، بهذا الإسناد. قال في حديث وكيع: "إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين [...]ليلة". وقال في حديث معاذ عن شعبة: "أربعين ليلة أربعين يوما". وأما في حديث جرير وموسى: "أربعين يوما".

وقال الإمام مسلم (في حديث حذيفة بن أسيد):

1- حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب، واللفظ لابن نمير، قالا: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب، أشقي، أو سعيد؟ فيكتبان. فيقول: أي رب، أذكر، أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره، وأجله، ورزقه. ثم تطوى الصحف، فلا يزاد فيها ولا ينقص".

2- حدثنا أبو الطاهر، أحمد بن عمرو بن سرح. أخبرنا ابن وهب. أخبرني عمرو بن الحارث. عن أبي الزبير المكي، أن عامر بن واثلة حدثه، أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول: الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره. فأتى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقال له حذيفة بن أسيد الغفاري، فحدثه بذلك من قول ابن مسعود، فقال: وكيف يشقى رجل بغير عمل؟ فقال الرجل: أتعجب من ذلك. فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكا،

فصورها وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم يقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك. ثم يقول: يا رب أجله فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك. ثم يقول: يا رب رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك. ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص".

3- حدثنا أحمد بن عثمان النوفلي. أخبرنا أبو عاصم.حدثنا ابن جريج. أخبرني أبو الزبير. أن أبا الطفيل أخبره، أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول، وساق مثل حديث عمرو بن الحارث".

4- حدثني محمد بن أحمد بن أبي خلف. حدثنا يحيى بن أبي بكير. حدثنا زهير أبو خيثمة. حدثني عبد الله بن عطاء، أن عكرمة بن خالد حدثه. أن أبا الطفيل حدثه قال: دخلت على أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني هاتين يقول: "إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة، ثم يتصور عليها الملك -قال زهير: حسبته قال: الذي يخلقها- فيقول: يا رب أذكر أو أنثى؟ فيجعله الله ذكرا أو أنثى. ثم يقول: يا رب أسوي أو غير سوي؟ فيجعله الله سويا أو غير سوي. ثم يقول: يا رب ما رزقه؟ ما أجله؟ ما خلقه؟ ثم يجعله الله شقيا أو سعيدا".

5- حدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد. حدثني أبي. حدثنا ربيعة بن كلثوم. حدثني أبي كلثوم، عن أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن موكلا بالرحم، إذا أراد الله أن يخلق شيئا بإذن الله، لبضع وأربعين ليلة، ثم ذكر نحو حديثهم"[1].

ثانيا: اللطائف الإسنادية.

1- حديث ابن مسعود متفق على صحته، وتلقته الأمة بالقبول.

2- يدور حديث ابن مسعود على الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم. وعنه(أي عن الأعمش)، رواه جماعة منهم: أبو الأحوص، وحفص،

1- في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، ص. 1019.

وسفيان الثوري -فيما رواه الإمام البخاري[1]- وعبد الله بن نمير، ووكيع، وجرير بن عبد الحميد، وعيسى بن يونس -فيما رواه الإمام مسلم[2]- وأبو معاوية، فيما رواه الإمامان مسلم والترمذي[3]. وفي الباب عن أبي هريرة، وأنس رضي الله عنهما، قال الإمام الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح [...] وفي الباب عن أبي هريرة وأنس"[4].

3-لم ينفرد الأعمش بهذا الحديث عن زيد بن وهب، بل تابعه: سلمة بن كهيل، وحبيب بن حسان[5].

4- ولم ينفرد به زيد بن وهب عن ابن مسعود، بل تابعه أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود، وعلقمة، وأبو وائل، ومخارق بن سليم، وأبو عبد الرحمن السلمي[6].

5- انفرد الإمام مسلم برواية حديث حذيفة بن أسيد دون الإمام البخاري، الذي ربما لم يخرجه.

أ- لاختلاف الرواة في نقل العدد.

ب- أو لكونه من رواية أبي الطفيل[7]: وهو عامر بن واثلة، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن بعض الصحابة. كان ثقة في الحديث، وكان متشيعا[1]، وقال ابن عدي:

1- في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، 303/6، وفي أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، 313/6، وفي التوحيد، باب قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين)، 441/13.

2- في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، ص. 1019.

3- مسلم في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، ص. 1019، والترمذي في القدر، باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم، 4/ 446.

4- الجامع، 446/4. وروى مسلم حديث أنس في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، ص. 1020، وحديث أبي هريرة في الباب نفسه، ص. 1022، وفي الباب عن علي وجابر بن عبد الله وغيرهما، رواها مسلم، ص. 1020 – 1022.

5- ذكره ابن حجر في الفتح، 478/11.

6- فتح الباري، 478/11.

7- فتح الباري، 484/13.

"له صحبة، قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قريبا من عشرين حديثا، وكانت الخوارج يذمونه باتصاله بعلي، وقوله بفضله وفضل أهل بيته، وليس برواياته بأس"[2].

ج- وإما لكونه لم يره ملتئما مع حديث ابن مسعود[3].

6- مدار حديث حذيفة، على أبي الطفيل، رواه عنه جماعة منهم: عمرو بن دينار، وعكرمة بن خالد، وأبو الزبير.

ثالثا: الجمع بين الحديثين.

أولا: فيما يتعلق بحديث ابن مسعود.

- اتفق الإمامان البخاري ومسلم على رواية حديث ابن مسعود، من طريق الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم:

- فأما الإمام البخاري، فرواه من طريقي عمر بن حفص عن أبيه[4]، وهشام بن عبد الملك[5] وآدم عن شعبة[6] كلاهما (أي شعبة وحفص) عن الأعمش به. ولم يختلف عمر بن حفص في روايته عن أبيه، وهشام بن عبد الملك في روايته عن شعبة في أن الآدمي يجمع في بطن أمه أربعين يوما. وقال آدم عن شعبة به: "إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما وأربعين ليلة".

ورواه الإمام مسلم من طرق: عبد الله بن نمير، وأبي معاوية، ووكيع، وشعبة، وجرير بن عبد الحميد، وعيسى بن يونس، كلهم عن الأعمش بهذا الإسناد[7]. والذي ينبغي التنبيه عليه في هذه الطرق مقارنة مع ما جاء عند الإمام البخاري:

1- تهذيب التهذيب، ابن حجر، 172/4.

2- الكامل، 1741/5.

3- فتح الباري، 484/11.

4- كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، 363/6.

5- كتاب القدر، 477/13.

6- كتاب التوحيد، باب قوله تعالى "ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين"، 440/11.

7- كلها في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، ص. 1019.

أ- اتفاق عبد الله بن نمير وأبو معاوية، وجرير بن عبد الحميد، وعيسى بن يونس، وشعبة كلهم عن الأعمش عند مسلم، وهشام بن عبد الملك عن شعبة، وحفص عن وكيع عند الإمام البخاري، في أن الجمع يتم في الأربعين يوما.

ب- وخالفهم معاذ عند مسلم، وآدم عند البخاري، كلاهما عن شعبة في قولهما: "أربعين يوما وأربعين ليلة". ويجمع بينها في أن المراد هو: يوما بليلته، أو ليلة بيومها[1].

ثانيا: حديث حذيفة بن أسيد.

اختلف الرواة في نقلهم العدد في هذا الحديث: حيث قال في رواية عمرو بن دينار عن أبي الطفيل عن حذيفة: "... بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة..." على الشك. وقال في رواية أبي الزبير عن أبي الطفيل عنه به: "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة..." دون شك، وفي نسخة: "ثلاث وأربعين"[2]. وقال في حديث عكرمة بن خالد عن أبي الطفيل عنه به: "... تقع في الرحم أربعين ليلة..." دون شك. وقال في حديث كلثوم عن أبي الطفيل عنه به: "... لبضع وأربعين ليلة".

وقد جمع بينها القاضي عياض بأنه ليس في رواية ابن مسعود بأن ذلك يقع عند انتهاء الأربعين الأولى، وابتداء الأربعين الثانية، بل أطلق الأربعين؛ فاحتمل:

* أن يريد أن ذلك يقع في أوائل الأربعين الثانية.

*ويحتمل أن يجمع الاختلاف في العدد الزائد، على أنه بحسب اختلاف الأجنة. قال الحافظ ابن حجر معقبا على الاحتمال الثاني: "وهو جيد لو كانت مخارج الحديث مختلفة، لكنها متحدة وراجعة إلى أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد، فدل على أنه لم يضبط القدر الزائد على الأربعين والخطب فيه سهل"[3].

1- فتح الباري، 480/11-481.

2- فتح الباري، 480/11.

3- فتح الباري، 481/13.

ثالثا: ما يتعلق بنزول الملك، وخلق الآدمي: وقع في حديث حذيفة بن أسيد، عند مسلم، ما ظاهره يخالف حديث ابن مسعود ولفظه: "إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون -وفي نسخة ثلاث وأربعون- بعث الله إليها ملكا وفي رواية: "يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة -على الشك- وفي رواية: "إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة، ثم يتصور عليها الملك".

وبالنسبة للملك، قال في رواية: "بعث الله إليها ملكا، فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى... الحديث. وقال في رواية: "ثم يتصور عليها الملك فيقول: يا رب أذكر أو أنثى. وقال في رواية: "يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب أشقي، أو سعيد؟... الحديث.

ولم يختلف في حديث ابن مسعود في أن الملك يأتي الآدمي في نهاية الأربعين الثالثة، وقد جمعت النطفة في الرحم في الأربعين الأولى، ثم تكونت علقة في الثانية، لتكون مضغة في الثالثة ثم يبعث الله إليها ملكا، فيؤمر بأربع: برزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح.

وأهم مسألة تطرح هنا، هي في قوله: "بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟... الحديث المذكور في حديث حذيفة بن أسيد. والسؤال هو: التعارض الذي يبدو في مسألة الخلق، بين حديثي ابن مسعود، وحذيفة بن أسيد: ففي الوقت الذي يفيد فيه حديث حذيفة، أن خلق الآدمي، يتم في الأربعين الأولى، فإن حديث ابن مسعود، قد يفهم منه أن خلقه يتم في الأربعين الثالثة، فهل هذا التعارض حقيقي؟ وإن كان ظاهريا فكيف جمع العلماء بينهما؟ وما هي آراء الطب قديما وحديثا بشأن هذه القضية؟ لأن التشريح الطبي قديما وحديثا، مع اكتشاف الأجهزة العلمية في الطب حديثا، هو الذي يسهم بشكل كبير في الكشف عن هذه الحقائق. خاصة وأن حديث ابن مسعود يفهم منه ذكر الأطوار الثلاثة التي يمر عليها

الآدمي، فيتصور، وينفخ فيه الروح بعد ذلك؟

وقد أخرج الفريابي حديث حذيفة، من طريق يوسف المكي عن أبي الطفيل عنه بلفظ: "إذا وقعت النطفة في الرحم، ثم استقرت أربعين ليلة، قال فيجيء ملك الرحم، فيدخل فيصور له عظمه، ولحمه، وشعره، وبشره، وسمعه وبصره ثم يقول: أي رب أذكر أو أنثى...الحديث[1].

قال القاضي عياض في الجمع بين الحديثين: "وحمل هذا على ظاهره (أي التصوير والخلق في الأربعين الأولى في ما جاء في حديث حذيفة) لا يصح؛ لأن التصوير بأثر النطفة وأول العلقة في أول الأربعين الثانية غير موجود ولا معهود، وإنما يقع التصوير في آخر الأربعين الثالثة كما قال تعالى: "ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما" (المؤمنون 14) فيكون معنى قوله: "فصورها... الخ، أي كتب ذلك، ثم يفعله بعد ذلك بدليل قوله بعد "أذكر أو أنثى"[2]. قال: "وخلقه جميع الأعضاء، والذكورية والأنوثية، يقع في وقت متفق وهو مشاهد فيما يوجد من أجنة الحيوان، وهو الذي تقتضيه الخلقة واستواء الصورة. ثم يكون للملك فيه تصور آخر: وهو وقت نفخ الروح فيه حين يكمل أربعة أشهر، كما اتفق عليه العلماء أن نفخ الروح لا يكون إلاّ بعد أربعة أشهر"[3] فيكون معنى التصوير في الأربعين الأولى، وما جاء بعده من ذكر الخلق...الخ. فيما ذكر في حديث حذيفة، عند القاضي عياض، معناه أنه كتبه.

وذهب ابن الصلاح في الجمع بينهما، بأن الحمل فيه على التعدد، فمرة أرسل الملك في ابتداء الأربعين الثانية، وأخرى في انتهاء الأربعين الثالثة لنفخ الروح فيه. ويحمل التصوير في

1- ذكره الحافظ في الفتح، 484/11.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر نفسه.

حديث حذيفة على أنه يصورها لفظا وكتبا لا فعلا: أي يذكر كيفية تصويرها ويكتبها، بدليل أن جعلها ذكر أو أنثى إنما يكون عند المضغة[1].

الاعتراض على هذين الرأيين: اعترض على أن التصوير حقيقة إنما يقع في الأربعين الثالثة، بأنه شوهد في كثير من الأجنة التصوير في الأربعين الثانية وتمييز الذكر على الأنثى[2]، ومن أجل ذلك عرض الحافظ ابن حجر احتمالا آخر قال: "فعلى هذا الرأي (أي مسألة مشاهدة التصوير في الأربعين الثانية) فيحتمل أن يقال: "أول ما يبتدئ به الملك، تصوير ذلك لفظا وكتبا، ثم يشرع فيه فعلا عند استكمال العلقة ففي بعض الأجنة يتقدم ذلك وفي بعضها يتأخر"[3] غير أن هذا التوجيه يصطدم من جهة أخرى بما ذكر في حديث حذيفة من ذكر: العظم واللحم وذلك لا يتم إلاّ في أربعين العلقة، فيقوى ما قاله عياض وغيره من أن المقصود هو الكتابة[4].

- واحتمل بعضهم في الجمع بين الحديثين: أن الملك عند انتهاء الأربعين الأولى، يقسم النطفة إذا صارت علقة إلى أجزاء بحسب الأعضاء.

- أو يقسم بعضها إلى جلد، وبعضها إلى لحم، وبعضها إلى عظم، فيقدر ذلك كله قبل وجوده، ثم يتهيأ ذلك في آخر الأربعين الثانية، ويتكامل في الأربعين الثالثة[5].

- وقال بعضهم: "معنى حديث ابن مسعود، أن النطفة يغلب عليها وصف المني في الأربعين الأولى، ووصف العلقة في الأربعين الثالثة، ولا ينافي ذلك أن يتقدم تصويره[6]. ثم أورد ابن حجر ميل بعض المتأخرين من الشراح في ذلك العهد إلى الأخذ بما دل عليه

1- المصدر نفسه.

2- نقله الحافظ في الفتح، كما نقل الأقوال الأخرى، 484/11.

3- المصدر نفسه.

4- المصدر نفسه.

5- فتح الباري، 485/11.

6- المصدر نفسه.

حديث حذيفة من أن التصوير والتخليق يقع في أواخر الأربعين الثانية[1]. وقال ابن الأثير في "النهاية" يجوز أن يريد بالجمع، مكث النطفة في الرحم، أي تمكث النطفة أربعين يوما. تخمر فيه حتى تتهيأ للتصوير ثم يخلق بعد ذلك[2].

رابعا: الموازنة بين ما جاء في رأي الطب عند المتقدمين والطب في العصر الحديث:

أولا: التفسير العلمي لهذه المسألة عند المتقدمين إلى عهد الحافظ ابن حجر. بعد قراءتي ما جاء في "فتح الباري" من أقوال، أخلص إلى القول: إنه يمكن تقسيمها إلى مذهبين:

- **المذهب الأول**: يرى أن خلق الآدمي في الرحم، يتم في أطوار ثلاثة على النحو الآتي:

* **الطور الأول**: بعد وقوع النطفة في الرحم، تطير في جسد المرأة تحت كل ظفر وشعر مدة أربعين يوما، ثم تنزل، وهذا هو جمعها. وهو المذكور في حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

* **الطور الثاني**: يخالط الدم النطفة شيئا فشيئا في الأربعين الثانية، إلى أن تصير علقة.

* **الطور الثالث**: يخالط اللحم العلقة شيئا فشيئا في الأربعين الثالثة إلى أن تصير مضغة، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيها الروح. ثم تصير هذه المضغة -بعد نفخ الروح- عظاما، ومن ثم فإن حديث ابن مسعود يتوافق مع الآية في أن التخليق يكون للمضغة.

- **المذهب الثاني**: يرى أن خلق الآدمي في الرحم، يتم في الأربعين الأولى على النحو الآتي:

* **في ستة أيام الأولى من الأربعين الأولى**: يستدير الرحم على نفسه ويشتد، وإلى تمام هذه الستة، ينقط فيه ثلاث نقاط: في مواضع القلب، والدماغ، والكبد

* **في ثلاثة أيام التي بعدها**: تظهر بين تلك النقاط خمسة خطوط إلى تمامها.

* **في خمسة عشر يوم التي بعدها**: تنفذ الدموية فيه إلى تمامها، فتتميز الأعضاء الثلاثة.

* **في اثني عشر يوم التي بعدها**: تمتد رطوبة النخاع.

1- المصدر نفسه.

2- نقله الحافظ في الفتح، 480/11.

* **في تسعة أيام التي بعدها:** ينفصل الرأس على المنكبين، والأطراف عن الضلوع، والبطن عن الجنين.

* **في أربعة أيام التي بعدها:** يتم هذا التمييز، بحيث يظهر للحس[1].

فيتم إذن خلق الجنين بتصويره على هذا الشكل في أربعين يوما: أو ما يزيد عليها بأيام لا تزيد على الأسبوع إلى عشرة أيام. ثم تتضاعف هذه الحركة في الأربعين الثانية، لتكوين العلقة، ثم تتضاعف في الأربعين الثالثة لتكوين المضغة. وهو ما نقل الطبيب علي بن المهذب الحموي اتفاق الأطباء عليه آنذاك.

ثانيا: التفسير العلمي لهذه المسألة في القرن العشرين: يتناول كلامي عن هذه المسألة في هذا المقال، الأربعين الأولى، التي جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن خلق الآدمي، يجمع في بطن أمه، أربعين يوما، وجاء في حديث حذيفة، ما يدل على أن الملك يتنزل على رأس هذه الأربعين (أو ما يزيد عليها بأيام)، فيصورها: بخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها، وعظامها. فهل يتطابق هذا المعنى بالجمع الذي ورد ذكره في حديث ابن مسعود؟ وإذا كان الطب إلى عهد الحافظ ابن حجر، قد ذكر إمكانية ذلك، رغم وسائله البسيطة؛ إذ كان اعتمادهم الأساس فيها، على التشريح، والتّعيين بالنظر المجرد -كما ذكرته عند أصحاب المذهب الثاني- فما هو رأي الطب الحديث، بعد تطور الوسائل بشكل مذهل: فاكتشف المجهر، والتصوير الإشعاعي بمختلف أنواعه...الخ؟

كشف علم الأجنة الحديث عن مراحل تكوين الجنين، وحددها بعدة مراحل منها:

أ - مرحلة التخلق.

ب- مرحلة النشأة.

ج - مرحلة قابلية الحياة.

د - مرحلة الحضانة الرحمية.

هـ- مرحلة المخاض.

1- ينظر: فتح الباري، 481/11-485، تصرفت في تلخيصه على هذا الشكل.

وسأحاول في هذه المناسبة الكلام عن رأي الطب الحديث فيما يتعلق بالمرحلة الأولى باختصار، وتصرف.

مرحلة التخلق: تمتد هذه المرحلة من وقت دخول الحيوان المنوي في البويضة، إلى غاية أربعين يوما، أو ما يزيد عليها بأيام قليلة. وتنقسم بدورها إلى خمس فترات زمنية، تتميز كل فترة عن الأخرى بخصائص معينة، وسوف أتكلم فيها عن الفترات الثلاث الأولى.

1- **فترة النطفة:** تبدأ من أول يوم يتم فيه التلقيح، إلى اليوم الرابع عشر، وتنقسم بدورها إلى فترتين.

الأولى: تستغرق مدة ستة أيام الأولى؛ فبعد دخول الحيوان المنوي في البويضة، تتكون النطفة الأمشاج[1]، أي ما يعرف بالبويضة الملقحة (الزيغوت= zygot)، إذن فبداية هذه المرحلة، هي عبارة عن اختلاط سائلين يتحركان في وسط سائل.

الثانية: تبدأ من اليوم السادس تقريبا، وتمتد إلى غاية اليوم الرابع عشر؛ وفيها تشق النطفة طريقها إلى تحت سطح بطانة الرحم، مواصلة انقساماتها الخلوية، وتطورها. ثم يتم انغراسها في الرحم، لتكتمل بذلك مرحلة النطفة، في اليوم الرابع عشر من التلقيح تقريبا، وبذلك تأخذ النطفة حصتها من الأربعين الأولى[2]. وأهم ما تتميز به هذه الفترة، أنه بعد فوات العادة الشهرية بأسبوع واحد، يتميز بالكاد الرأس، بفتحة الفم الواسعة تماما في أسفل الرأس، كما يميز تكوّن القلب الجنيني[3].

2- **فترة العلقة:** تمتد من اليوم الرابع عشر تقريبا، إلى اليوم الحادي والعشرين من الأربعين الأولى. وفيها تستمر الخلايا في الانقسام والتكاثر -بعد فترة النطفة- وفيها يتصلب

1- النطفة، والنطافة: تعني القليل من الماء. أما المشج: جمع أمشاج، فيعني كل لونين مختلطين، وقيل: ما اختلط من حمرة وبياض، وقيل: كل شيئين مختلطين، لسان العرب، 4461/6 و4207/6.

2- مراحل تخلق الجنين.

3- أعتقد أنه لو قال: "ميعاد التلقيح"، لاستقام مع المعنى أفضل؛ ولتحاشى خلطه بالعادة الشهرية المألوفة، وهو منقول من قرص"روعة الخلق".

الجنين، ثم يتثلم[1] عند تكون الطبقة العصبية، ويأخذ الجنين في اليوم الحادي والعشرين شكلا يشبه العلقة، كما تعطى الدماء المحبوسة في الأوعية الدموية للجنين، لون قطعة من الدم الجامد[2]، وبهذا تأخذ العلقة في اليوم الحادي والعشرين تقريبا حصتها من الأربعين الأولى.

3- **فترة المضغة:** وتمتد من اليوم الرابع والعشرين من الأربعين الأولى، إلى الأسبوع السابع، وتنقسم إلى طورين:

أ- **المضغة غير المخلقة:** يبدأ هذا الطور بظهور الكتل البدنية في اليوم الرابع والعشرين أو الخامس والعشرين، في أعلى اللوح الجنيني، ثم يتوالى ظهور هذه الكتل بالتدريج إلى مؤخرة الجنين. وفي اليوم الثامن والعشرين، يتكون الجنين من عدة فلقات، تظهر بينها انبعاجات، مما يجعل شكل الجنين شبيها ب"العلكة" الممضوغة؛ فتظهر المضغة كقطعة من اللحم لا تركيب مميز لها (الصورة رقم: 1).

ب- **المضغة المخلقة:** يزداد نمو الجنين تدريجيا من حيث الحجم، وتبدأ بعض الأعضاء في الظهور: كالعينين، واللسان، في الأسبوع الرابع وتظهر الشفتان في الأسبوع الخامس، كما تظهر نتوءات الأطراف (اليدين، والساقين)[3]. وبعد مرور ستة أسابيع على الحمل، يمكن قياس المضغة، فأهم ما يميز هذه الفترة، هو تشكل الوجه، والأضلاع بوضوح أكبر، كما يستقيم الرأس تدريجيا وكل الجسم، كما تحدث الرؤية من خلال رأس

1- يتثلم: من (ثلم)، وهو الثلم في الوادى، إذا انكسر جرفه وتثلم، لسان العرب، 502/1.

2- وبذلك تتكامل المعاني التي يدل عليها لفظ "ألعلقة": أي الدودة التي تعيش في البرك، والشيء المعلق، وقطعة الدم الجامد، لسان العرب، 4222/6، وينظر: مراحل تخلق الجنين.

3- مراحل تخلق الجنين، وينظر: الجنين ونشأة الإنسان بين العلم والقرآن الكريم، شريف كف الغزال، كلاهما على الإنترنيت.

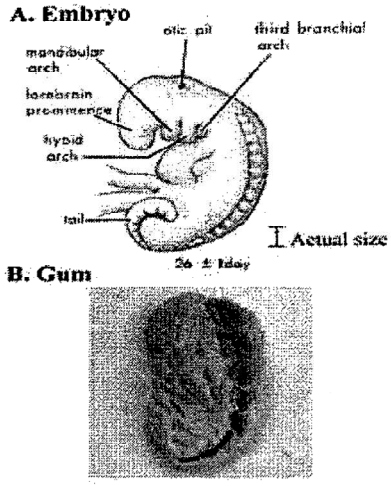

الصورة رقم 1: المضغة في الأعلى، تشبه العلكة

الجنين، ويظهر فيها انتفاخان في مقدم الرأس، وذلك هو المخ، فيما تشكل نتوءات أخرى أقساما مختلفة من الدماغ[1] (الصورة رقم: 2) وبهذا تأخذ المضغة نصيبها من الأربعين الأولى.

1- روعة الخلق.

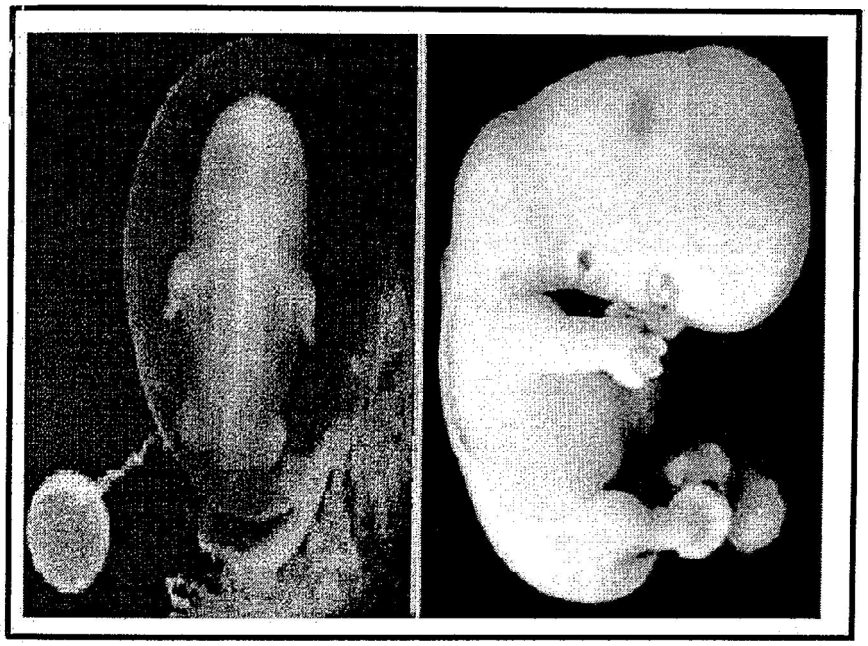

(الصورة رقم 2) عن اليمين:

الجنين في اليوم الثامن والأربعين، وعن الشمال: في اليوم الثاني والأربعين أنهي هذا المحور الطبي عند المتقدمين وفي الطب الحديث، بتسجيل النتائج الآتية:

1- تأكيد الطب الحديث، بما استعمله من أجهزة دقيقة ومتطورة، على أن أطوار النطفة، والعلقة، والمضغة، تتم في صورتها الأولى كلها في الأربعين الأولى من الحمل، أو ما يزيد عليه بأيام قليلة، وهذا يتطابق مع ما جاء في حديث حذيفة بن أسيد، ولعله هو المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم، إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما.

2- تطابق نتائج وملاحظات الطب الحديث، إلى حد كبير، بما جاء ذكره في المذهب الثاني عند الطب في القرون المتقدمة (القرن الثامن والتاسع الهجريين). وهذا ما أثار دهشتي، وإعجابي بالطب آنذاك، على الرغم من بساطة الأجهزة عندهم، مقارنة بما توصل إليه العلم الحديث من تطور في هذا المجال.

3- القدرة الفائقة عند الأطباء المتقدمين في: دقة النظر، ودقة الملاحظة، ودقة التمييز.

4- إن أهم نتيجة تتأكد عندنا هنا، هي أن تصوير شكل الآدمي الوارد ذكره في حديث حذيفة بن أسيد، هو تصوير حقيقي، يطابق ما توصل إليه العلم الحديث، ومن ثمّ فإن الملك يتزل عل رأس هذه الأربعين ليصور الآدمي تصويرا حقيقيا، وليس كتابة فقط، ومن ثم يترجح رأي الطب الحديث، وما ذهب إليه رأي الطب عند أصحاب المذهب الثاني، فيما نقله عنهم الحافظ ابن حجر، على ما ذهب إليه القاضي عياض، وابن الصلاح، من أن هذا التصوير يتزل على معنى الكتابة.

5- النتيجة التي ينبغي تسجيلها في هذا المقام أيضا، هي أن الطب الحديث، لا يزال عاجزا أمام تفسير كثير من المسائل المتعلقة بالخلق: كتلك الحركات التي تظهر في أطوار الخلق المختلفة، وتلك الإشارات التي يرسلها الجنين...الخ[1]. والتي أرى -كمؤمنة ولست طبيبة- أنها تتعلق بمسألة نفخ الروح في هذا الآدمي، وما يتميز به بذلك كإنسان، عن غيره من مخلوقات الله -والله أعلم-.

خامسا: ما جاء في مسألة "نفخ الروح": يدل حديث ابن مسعود بجميع طرقه على أن الجنين يتقلب في مائة وعشرين يوما، في ثلاثة أطوار، كل طور منها في أربعين، ثم بعد تكملتها ينفخ فيه الروح[2]. ولم يقع في جميع الروايات في حديث حذيفة بن أسيد عبارة "نفخ الروح" في هذه الأربعين الأولى أو ما يزيد عليها بأيام. ولهذا ينبغي التأكيد هنا على بعض الأمور:

الأول: دفع أي وهم قد يتبادر في أن نفخ الروح يتم في تمام الأربعين الأولى أو بعدها بأيام، وهذا ما لم يرد ذكره في جميع الروايات في حديث حذيفة.

الثاني: أن الآدمي خلال هذه الفترة يعيش حياة مثل سائر حياة الكائنات الحية، والدليل على ذلك، تلك الانقسامات الخلوية، والتطورات التدريجية، وغيرها.

1- روعة الخلق.

2- صحيح البخاري مع الفتح، 363/6، 440/11 و477/13.

الثالث: أن التصوير الأول للآدمي يتم في الأربعين الأولى من بداية الحمل، ثم تتطور هذه الوظائف في الأربعين الثانية، وتزداد تطورا في الأربعين الثالثة.

الأمر الرابع: يترجح عندي أن الملك الموكل بالرحم يتنزل مرتين: إحداهما، على رأس الأربعين الأولى، وبداية الأربعين الثانية؛ لتصوير هذا المخلوق، بمثل ما جاء في حديث حذيفة. والأخرى لنفخ الروح في هذا المخلوق، بمثل ما ذكر في حديث ابن مسعود -والله أعلى وأعلم- وهو الرأي الذي ذهب إليه القاضي عياض، وابن الصلاح.

سادسا: وجه الإعجاز في هذه المسألة: قال النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأحاديث قبل ما يزيد على أربعة عشر قرنا، وبالإضافة إلى ما جاء من تفسير عند الطب المتقدم، والذي لم تكن وسائله متطورة بالشكل الذي هي عليه في القرن العشرين، وبداية القرن الواحد والعشرين، فإن الطب الحديث، أكد بأن التصوير الأول للجنين يتم في الأربعين يوما الأولى من بداية الحمل. فمن علّم النبي محمدا صلى الله عليه وسلم هذا الكلام؟ إن لم يكن الله عز وجل -خالق هذا الكائن وغيره، عالم السر وأخفى- هو الذي أوحى إليه بذلك، وهذا ممّا يؤكد صدق رسالته عليه الصلاة والسلام، وهي صورة حية تعبر عن أحد أوجه الإعجاز في السنة النبوية الشريفة.

وخلاصة القول إن محطات الإعجاز العلمي، والتشريعي واللغوي، وغيرها، لا تزال ميدانا خصبا، هي في حاجة إلى اهتمام وعناية الباحثين، لإبرازها من أجل التفهيم والتفحيم؛ لاسيما ما يتعلق بمسألة خلق الآدمي التي تناول هذا البحث فرعا منها. فعلم الأجنة رغم تطور وسائله لا يزال عاجزا أمام حل كثير من الرموز والحركات التي تصدر عن الجنين وهو في رحم أمه.